المدّ في القرآن الكريم بين الفونيمات القطعية والفوقطعية
ـ دراســـــــــة صوتيـــــــــة ـ

د. مصطفى عوض بني ذياب، جامعة البلقاء التطبيقية، إربد، الأردن.
د. عبير عبيد الشبيل، جامعة البلقـــــــــــاء التطبيقية، إربد، الأردن.

ملخّـص

يتناول المقال ظاهرة المد في القرآن الكريم ودوره في تغيير البنية المقطعية، ويدرس خصائص المد وأثره على الفونيمات الفوقطعية: النبر والتنغيم. ويشير إلي الطاقة الصوتية التي يوفرها المد لقراء القرآن الكريم في ضوء السياق الصوتي للبنية المقطعية للكلمة. والمد استحقاق صوتي لغوي على مستوى الصوت والمقطع، والكلمة والجملة نفترض أنّ له ارتباطاً بالسياق الصوتي للمقطع التالي للمد أو السابق عليه، وخصائص الأصوات الواقعة في هذا السياق.

الكلمات المفتاحية: المدّ، الفونيمات، النبر، السياق الصوتي، المقطع.

Abstract

The research deals with phenomenon of ALMAD in the Holy Quran. And the role of Linguistic structure in changing the sound clip. The properties of the ALMAD and the effect on the phonemes are studied: stress and intonation. And the Sound Power provided by the ALMAD to the readers of the Holy Quran. In the light of the sound context of the syllable structure of the word.

And Almad-linguistic maturity of the sound-level section, voice and syllable. Assume that it has a connection to the Voice context of the next or previous Sound clip, and the characteristics of sounds in this context.

Key words: AL mad, phonemes, stress, intonation, the Voice context, syllable.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المقدمـــــة:

المدّ ظاهرة صوتية بارزة في اللغات، وعلى نحو خاص في العربية وكتابها العظيم القرآن الكريم، وقد أولاها علماء اللغة وعلماء القراءات عناية خاصة، اتفقوا في كثير من المواطن حولها، سواء أكان ذلك في أماكن المدّ في الكلمة الواحدة، أو بين الكلمتين، كان هذا المدّ لازما أم عارضا. تهدف الدراسة إلى المحاولة لاستجلاء التنوعات اللغوية والضوابط الصوتية الناتجة عن، كما لا تُغفل الدراسة المدّ وأثره في التنوعات الصوتية، وما يسمى بالفونيمات الفوقطعية، النبر والتنغيم لما لهما من دور مهم في الفصاحة والبلاغة والوضوح، وهي أبرز القضايا التي اهتم بها علم الأصوات النطقي حديثاً.

ويرى الباحثان أن المدّ في القرآن، فضلاً عن اللغة، استحقاق صوتي لغوي على مستوى الصوت والمقطع، والكلمة والجملة. نفترض أنّ له ارتباطاً بالسياق الصوتي للمقطع التالي للمد أو السابق عليه، وخصائص الأصوات الواقعة في هذا السياق. ويسعى البحث في جوهره لضبط الأداء الصوتي من جهة؛ وذلك تحقيقا لغاية الفصاحة والوضوح وتناسق المقاطع، ومن جهة أخرى التأثير في المتلقي خدمة للمعنى والدلالة، وضبط الإيقاع الدلالي في التوجيه والإيحاء.

يعدّ المدّ ملمحاً قرآنياً خاصاً قائما على مجموعة من الأسس الصوتية المنضبطة تحاول الدراسة الكشف عن أسرارها، وعلاقاتها المختلفة بعلوم اللغة.

المدّ لغـــــــة:

قال تعـــــــــالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1]

«جاء في كتاب العين: «المَدُّ: الجَذْبُ، والمَدُّ: كَثرةُ الماء أيّامَ المُدودِ. ومَدَّ النَّهرُ، وامتَدَّ الحَبْلُ، هكذا قالته العَرَب. والمَدَدُ: ما أمدَدْتَ به قوماً في الحربِ وغيره من الطعام والأعوان. والمادّةُ: كُلُّ شيءٍ يكون مَدَداً لغيره...فإن قُلتَ: أَمِدَّني خُرِّجَ على مجرى المَدَد بها والزِّيادة ويكون في معنى المَدَد... والامتِدادُ في الطول، وامتَدَّ بهم السَّيْرُ أي طالَ.»[2] أي: نزيد مرة بعد أخرى وهذا معنى المد والمدد.[3]

وذكر العسكري في كتاب الفروق اللغويـــــة أنّ: «الْمدَّة أَصْلهَا الْمَدّ وَهُوَ الطول وَيُقَال مده إِذا طوله.»[4]

و«قال أَبُو عُبَيْدة: المَدُّ والمَتُّ والمَطُّ سَواء، وَقد مَدَّه يَمُدُّه مَدّاً ومَدَّ بِهِ فامْتَدَّ وتَمَدَّد.»[5]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد أورد صاحب اللسان أنّ: «الْمَدّ إنما هُوَ الزِّيَادَةُ أَبداً.[6] وذكر في موطن آخر قوله: مدد: المَدُّ: الجَذْب والمَطْلُ. مَدَّه يَمُدُّه مَدّاً ومدَّ بِهِ فامتَدّ ومَدَّدَه فَتَمَدَّد، وتَمَدَّدناه بَيْنَنَا: مَدَدْناه. [7]

فالمدّ في معاجم اللغة يشير في المجمل إلى معنى الزيادة في الشيء والإطالة بما يزيد فيه عن المعهود والمعتاد، ومنه معنى الكثرة في الشيء، وهو الزيادة فيه وإطالته.

المدّ اصطلاحـــــاً:

ظاهرة صوتية لغوية تمتاز بها أصوات اللغة بعضها عن بعض، وقد تكون أبرز ظواهر اللغة وأوضحها بياناً وفصاحة؛ لأنها تُنْبِئ عن جودة النطق وصحته. المدّ نوعان: الأول: الطبيعي ويسمى بالقصر، والثاني: مدّ الزيادة والإطالة ، ويعرف بمصطلح «المدّ»، فإذا أطلق المدّ فالمقصود ليس المد الطبيعي، وإنما يقصد به مخالفة القصر. إلا إذا اقترن بكلمة حروف، كأن نقول: «حروف المدّ» فيقصد به المدّ الطبيعي.

والمد الطبيعي: هو أداء حروف المد إذا لم تلاق همزة أو سكونًا الأداء المعتاد دون زيادة، ويسمى المد الأصل، ومقداره حركتان وأمثلته: «قال، يقول، قيل»، ونحوها. و اتفق العلماء على أن المد الطبيعي لا يتجاوز حركتين بقدر ما يبرز صوت الحرف فحسب. [8]

أمّا المدّ الذي يخالف القصر فهو زيادة مطّ في حروف المد ولا يكون إلا لسبب، والسبب إما لفظي وهو همز أو سكون، وإما معنوي وهو قصد المبالغة في النفي. وإطالة الصوت بحرف المد إلى أكثر من حركتين عند ملاقاة همز أو سكون.[9]

وقد فصّل العلماء في أنواع المد، فجعلوه بدلا ومتصلا ومنفصلا وحجزا ومبالغة وعدلا وغيرها. أما البدل فيكون بإبدال الهمزة قبل حروف المد، فَمَثَله (آمن) من (أَأْمن)، والمتصل يكون في الكلمة الواحدة، والمنفصل يقع في كلمتين، ومدّ الحجز يحجز بين الساكنين والمتحرك ، ومدّ المبالغة للتعظيم، وأما مدّ العدل فإنه سمي بذلك لاعتدال النطق بالهمز نحو: آأنذرتهم، وأما مدّ التمكين فإنه يمكّن الكلمة عن الاضطراب نحو أولئك.[10]

والمدّ في جوهره هو إطالة الحركة الطويلة: الألف والواو، والياء، وإطالة نصف الحركة المسبوقة بفتحة: الواو والياء عند النطق بهما، زيادة عن المعتاد في نطق أصوات المد الثلاثة. وللمدّ درجات أقلها حركتان وهو المدّ الطبيعي، وتصل إلى ست حركات في المدّ المشبع.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أسبـــــاب وقوع المدّ:

مُدّة الصوت اللغوي من أهم ما يمتاز به عن غيره من أصوات اللغة الأخرى، فكلّ منها له امتداد صوتي زمني يحقق مبدأ التنوع والمخالفة، الذي يستند إليه التنوع الصوتي في كلّ اللغات. وهذا ما أشار إليه بعض الباحثين. فأصوات اللغة تتميز بعضها عن بعض، إضافة إلى الخصائص الصوتية والفروق الكيفية، باختلاف مدّتها الزمنية. فكل الأصوات، باستثناء الانغلاقية الشديدة، يمكن أن تستطيل، بقدر ما يسمح به هواء الرئتين.[11] والمدّ طاقة صوتية مميزة يمكن توظيفها لغايات صوتية بيانية، تحفظ صورة الكلمة بحفاظها على وضوح صوت العلة والمقطع الذي يكون فيه، كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

ولطول الصوت اللغوي الطبيعي أهمية كبيرة في الفصاحة والوضوح والبيان، وانسجام الكلام في نغماته، وإيقاعه. وقد تتأثر مدة الصوت اللغوي طولاً وقصراً بحسب السياق الصوتي والمجموعة الصوتية الواقع فيها. ويرى إبراهيم أنيس أن لطول الصوت أهمية خاصة في النطق باللغة نطقاً صحيحاً. فالإسراع في نطق الصوت أو الإبطاء به، يترك في لهجة المتكلم أثراً أجنبياً ينفر منه أبناؤها. [12]

ومن جانب آخر يجد المتكلم، أحياناً، أن هناك حاجة لتطويل الصوت اللغوي زيادة عن مدته المعتادة في النطق؛ خشية خفائه في غيره، عند وروده في سياق صوتي ما. فإنّ انسجام الكلام قد يتطلب طول بعض الأصوات وقصر بعضها الآخر. وقد عنى القدماء منذ القديم بإطالة بعض الأصوات الساكنة، كي يحولوا دون فنائها فيما بعدها من الأصوات كالميم والنون المعروف «بالغنة». [13]

يعدّ وقوع حروف المد قبل الهمزة أو السكون في الصوت المُدغم أو غير المدغم أحد الأسباب الرئيسة في إحداث المدّ في الكلام. ويرى ابن جني أن المد يتمكن مع الهمز؛ لأن الهمزة حرف نأى نشؤه وتراخي مخرجه.[14] فما طبيعة هذا السياق الصوتي؟ وما خصائص صوت الهمزة والصوت المدغم، الذي يزيد في طول حروف المدّ؟

للإجابة على هذين السؤالين يُستحسن أن نتعرف خصائص صوت الهمزة، وكيفية نطقها، وتعرّف أثر هذه السمات في تغيير حجم حروف المدّ وإطالتها فوق المدّ الطبيعي.

أمّا الهمزة فهو: صوت حنجري انفجاري، مجهور عند القدماء، مهموس عند بعض العلماء المحدثين، لا هو بالمهموس ولا بالمجهور عند آخرين. [15] لكن هذا الخلاف لا يؤثر في خصائص الهمزة الصوتية، ولعل أظهر ما في صوت الهمزة هو انفجاريتها،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتعدّ من أصعب الأصوات وأشقها نطقاً. ويتفق اللغويون على أنها تحتاج في نطقها إلى جهد عضلي كبير. ويصف أنيس كيفية نطقها بقوله: «عند النطق بالهمزة تنطبق فتحة المزمار انطباقاً تاماً فلا يُسمح بمرور الهواء إلى الحلق، ثمّ تنفرج فتحة المزمار فجأة فيُسْمَع صوت انفجار، هو ما نعبر عنه بالهمزة.» [16] والصوت الانفجاري درجات في مستوى قوته وانفجاره وشدّته، وتعدّ الهمزة أصعبها وأشقها نطقاً وأشدّ أصوات النطق في العربية قوة. [17]

وهي بهذا الوصف تمرّ بمرحلتين، الأولى: تكون بإغلاق فتحة المزمار بانطباق الوترين الصوتيين ومنع الهواء من الخروج، والثانية: تتمّ بانفراجهما فجأة، ثمّ اندفاع الهواء بقوة عبر التجويف الفموي. وقد وصفها الخليل بأنّها مهتوته مضغوطة مخرجها من أقصى الحلق.[18] ويرى ابن سينا أنّ الهمزة تحدث من حفزٍ قويّ من الحجاب، وعضل الصدر لهواء كثير.[19] وما يفسر هذه الصعوبة ميل أهل اللغة إلى تسهيلها أو حذفها أو إبدالها، فقد ذكر ابن يعيش أنّ الهمزة أبدلت من خمسة أحرف، هي: الألف والواو والياء والهاء والعين.[20] وهذا التغير والتبدل لا يكاد يحدث لأيّ صوت من أصوات اللغة، ما يبرر صعوبتها والتخفف من الجهد اللازم لإنتاجها مقارنة بغيرها من أصوات اللغة ، وهو ما جعل أهل العربية يميلون إلى إبدالها بغيرها مما سَهُل نطقه من أصوات اللغة.

واقـــــع المدّ صوتياً:

ينشأ المدّ في التركيب اللغوي على مستوى الكلمة أو الكلمتين عن طريقين: الأول عن طريق مدّ الحركة، سواء أكانت ضيقة كالضمة والكسرة، أو منفتحة كالفتحة، مثلها أو مثليها أو أكثر. فالضمة تصبح واوا، والكسرة تصبح ياء والفتحة تصبح ألفا. وهذا المد لا يُغيّر في مقاييس حروف المدّ مهما أطال المتكلم حرف المد. ولا يؤثر طول الصوت العربي في مقياسه كما ويبقى هو هو طال الصوت أم قصر. [21]

والأصوات اللغوية المستخدمة في الكلام عبارة عن ألوفونات لفونيماتها. من مظاهر اختلافاتها الظاهرة اختلاف أطوالها بتعدد مواقعها في السياقات الصوتية المختلفة، فقد تطول وقد تقصر، متأثرة بما يسبقها من أصوات أو ما يأتي تاليا لها، إضافة إلى خصائص تلك الأصوات وكيفية نطقها، الذي ينعكس على حروف المدّ بشكل واضح إذا وقعت قبل الهمزة أو الصوت المُدغم في مثله أو الساكن أصلاً أو عرضاً.

أما الطريق الثاني فيكون بإبدال الهمزة الثانية مدّاً مجانساً لحركة الهمزة الأولى إذا تتابعت همزتان، ويكون في بداية الكلمة نحو: آخذ من أَأْخذ، على زنة أَفْعل،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإيمان من إأمان، ... ونطق همزتين متتابعتين أمر غاية في الصعوبة؛ بسبب انفجاريتهما وتقدم مخرجهما في مدارج النطق، وهو انسجام يتطلبه الكلام في نغماته، تطول فيه بعض الأصوات أو تقصر، وصوت الهمزة من الأصوات الانغلاقية التي يصعب إطالتها؛ ولتسهيل النطق بها يتمّ تعويض الهمزة الثانية بإطالة حركة الهمزة السابقة عليها.

وظيفة المدّ في البنية التركيبية للكلمة:

تعدّ أصوات المدّ فونيمات قطعية في منظومة الأصوات العربية. وهناك تقابل فونيمي بينها وبين الحركات القصيرة. فإنّ كلمة (قَرأ) الفعل الماضي، غير كلمة (قارئ) اسم الفاعل. الفرق بين الكلمتين هو مقابلة الفتحة، وهي حركة قصيرة، للألف، وهي فتحة طويلة. الفرق كامن في طول كلّ منهما. فإنّ إطالة الفتحة في كاتب أنتجت كلمة أخرى بمعنى مختلف. وبهذا يُعدّ كلّ منهما فونيما منفصلاً؛ لأن تقابلهما يُحدث تغيراً في المعنى.

يوازن المدّ الإيقاع الصوتي لمقاطع الكلمة، ويحاول إيجاد مستوى من الإيقاع المتناغم في التتابعات الصوتية التي يقع فيها المدّ سابقاً للهمزة والحرف المدغم في نفسه، وعندما يقع فيه قبل وقف أو سكون. ومظهر هذا المدّ تحويل المقطع القصير أو الطويل المفتوحين إلى مقطع ممدود بإطالة المد.

يوصف المقطع بالطول إذا كان من النوع الرابع أو الخامس، بحسب تصنيف أنيس، ويوصف بالقصير إذا كان من النوع الأول أو الثاني. فالمقطع القصير يصبح طويلا إذا أصابه المدّ، وكذلك المقطع الطويل يصبح مقطعا مديدا. المدة والزمن هي أبرز صفات المقطع، والمقطع / جا / في (جاء أحدهم) قصير مفتوح، أصبح مع المدّ طويلا يوازي في الطول، في تقديرنا، المقطع من النوع الرابع أو الخامس في مدَّته؛ لأنّ المدّ فيه مشبعاً بمقدار ست حركات، كما سنوضح ذلك فيما يأتي.

المدّ وبنية المقطـــــع:

المقطع هو مجموعة من الأصـــــــوات التي تمثل قاعدتين تحصران بينهما قمة.[22] على مستوى المقطع ، يؤدي إطالة أصوات المدّ زيادة على مدّها الطبيعي إلى تغيرات في المقطع ونوعه، ويزيد في مستوى النبر فيه، ويكون السبب الرئيس في إحداث النبر، فيحدث تغييراً بيناً في بنية الكلمة؛ يؤدي إلى تغير موضع النبر فيها، أو يعيد توزيع النبر في الكلمة أو الجملة. وقد يترتب عليه تغير دلالي مؤثر في السياق العام لدلالة الكلمة أو الجملة؛ لأنّ النبر يؤثر في ضبط إيقاع الكلمات، كما أنه نشاط صوتي يحدث في جميع أعضاء النطق في وقت واحد، ويترتب عليه أن يصبح الصوت عالياً واضحاً في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السمع. وبحسب قواعد النبر في العربية فإنّ المقطع الطويل، ومنه الممدود، الذي يقع في غالب الأحيان في آخر الكلمة، ويكون منبوراً. وهو المقطع المكون من صوت صامت + حركة طويلة + صوت صامت.[23] لا بدّ أن يوظف هذا البناء الصوتي لغوياً على مستويات مختلفة، لها تأثير من نوع ما على المتلقي.

وينظر بعض الباحثين إلى هذا النبر الذي يُحدثه المدّ على أنه نبر سياقيّ تأكيدي،[24] يمكن أن يقع على أي مقطع في المجموعة الكلامية يجلبه المدّ، بسبب التغير الذي يُحدثه في البنية المقطعية للكلمة، على مستوى المقطع.

إنّ الوحدات الصوتية تتجمع حول الوحدة الأكثر إسماعاً.[25] وهذا ما يُحدثه المدّ، إذ يجعل فونيم الألف أو الفتحة الطويلة يحتفظ بقوة إسماعه، وعلى نحو خاص إذا وقع قبل همزة أو سكون وهي حالة صوتية تقتضي أن يفقد صوت المدّ بعضا منه؛ بسب الطبيعة الانغلاقية لصوت الهمزة أو الوقف. فيتحول صوت المدّ إلى حركة. فتأتي الحاجة إلى مدّه أو المبالغة في مدّة؛ كي لا يفقد جزءاً منه، أو يفنى سمعياً، فيؤدي أحياناً إلى تغير المعنى أو غموضه. والعناية بهذا المد تظهر في الكلام وفي القراءات القرآنية بصورة جلية.

ونرى أن الزيادة في مُدَّة نطق حروف المدّ يمكن عدّها من باب المخالفة الصوتية، أو التأكيد على إظهار هذه المخالفة، في معرض سياق صوتي يدفع إلى اختصار جزء من حروف المدّ أو إفنائها بسبب القطع في تيار النفس والصوت، الذي يُحدثه صوت الهمزة أو الوقف في الصوت المدغم. وهذا يوافق فهم ما قاله أحد الباحثين عن لهجة تميم، الذين يدخلون الألف بين الهمزتين في مثل: (أأسلمتم) فبعض القراء يجعلون ألفاً بين الهمزتين، ويفسر ذلك الباحث على أنه فصل بين المتماثلين، بإطالة حركة الهمزة الأولى لتحدث المخالفة الكمية في حركة المقاطع المتجاورة.[26]

وينسبها سيبويه إلى أهل الحجاز الذين يقولون في (أإنك) آإنك بالمدّ.[27] ويمكن تصور التغير الصوتي بالمعادلة الآتية:[28]

$$\text{ح} \begin{bmatrix} +\text{أمامية} \\ +\text{ضيقة} \\ +\text{قصيرة} \end{bmatrix} \rightarrow \text{ح} \begin{bmatrix} +\text{أمامية} \\ +\text{واسعة} \\ +\text{طويلة} \end{bmatrix} / \begin{bmatrix} +\text{حنجري} \\ +\text{وقفي} \end{bmatrix} \text{ص} \longrightarrow \begin{bmatrix} +\text{حنجري} \\ +\text{وقفي} \end{bmatrix} \text{ص}$$

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويرى شيخنا فيها أنّ الفتحة (الحركة الأمامية الضيقة القصيرة) تتحول إلى ألف (الحركة الأمامية الواسعة الطويلة) عندمـــــــا سبقت بالهمزة الوقفة الحنجرية ومتبوعة بمثلها.

وقد تختلف درجة المدّ عند القارئ نفسه باختلاف السياق الصوتي الواقع فيه، فنجده يطيل المدّ درجات مختلفة، في كلمات حكمها جميعا الإشباع بست حركات. ومن ذلك ما ذكره خلف في روايته التي يقول فيها :» أنّ حمزة كان يقصر المدّ المتصل في (الملائكة، وخائفين، وإسرائيل) عنه في (جاء أحدهم). ولكنّه كان يطيل المدّ المتصل في (الملائكة، وخائفين، وإسرائيل) أكثر مما يطيله في (أولئك).[29] فما الخصائص الصوتية للأصوات السابقة واللاحقة للمد التي أثرت في طول حرف المدّ؟

لتوضيح ذلك سوف نقوم بتحليل السياق الصوتي والخصائص الصوتية للسلسلة الأصواتية الواقع فيها المد. نبدأ بكلمة (أولئك) وهي تتألف من أربعة مقاطع، على النحو الآتي: أُ + لا +ءِ +كَ. جاء المقطع الأول والثالث والرابع من نوع واحد، وهو مقطع قصير مفتوح. أما المقطع الثاني فقد جاء مختلفاً فكانت حركته طويلة، وهو مقطع ممدود. وكان الصامت في المقطع الأول حنجري وقفي شديد، وفي الثاني الممدود، لثوي أسناني جانبي متوسط، وفي الثالث حنجري وقفي شديد، وفي الرابع حنكي قصي وقفي شديد.

السلسلة الصوتية للكلمة ومقاطعها عبارة عن تتابع للأصوات الانفجارية في المقطع الأول والثالث والرابع، يتخللها في المقطع الثاني صوت متوسط جانبي يحدث فيه إغلاق عند أصول الأسنان العليا، مع ترك منفذ لخروج الهواء من جانب الفم. والأصوات الشديدة الانفجارية يصعب إطالتها؛ لأنها أصوات انغلاقية. فلا يكون المجال متاحاً للمدّ إلا مع اللام، لاستمراريتها، فيصيبها بعض المدّ، ويطول المدّ مع الألف إلى حدّ الإشباع بمقدار ست حركات[30] بسبب وقوعه قبل الهمزة (الوقفة الشديدة). لكنّ حمزة لا يمدها مدّاً مشبعاً في مستوى المدّ في (الملائكة) بل يجعل المدّ في (الملائكة) أكثر إطالة. مما يدفعنا إلى تحليل سياقها الصوتي للمقارنة بين الكلمتين؛ لنتبين الفروق الصوتية الداعية لهذا الاختلاف في إطالة المدّ.

تتشكل كلمة (الملائكة) في سياق الجملة من خمسة مقاطع، على النحو لآتي: مَ + لا + ءِ + كَ + ةُ. وهي جميعاً مقاطع قصيرة مفتوحة، إلا المقطع الثاني فقد جاء ممدوداً. وقد جاء الصامت في المقطع الأول شفوي أنفي استمراري، وكان في الثاني لثوي أسناني جانبي متوسط، وفي الثالث وقفة حنجرية شديدة، وفي الرابع وقفة حنكية، والخامس

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقفة لثوية أسنانية.

هكذا نتبين أنّ عدد المقاطع في (أولئك) أربعة، وفي (ملائكة) خمسة، وجميع المقاطع في الكلمتين من النوع القصير المفتوح إلا المقطع الثاني فجاء ممدوداً في الكلمتين من النوع نفسه، والحروف نفسها، لكنّ المدّ فيهما مختلف، وهو مدّ متصل. وهو كذلك مدّ مشبع بمقدار ست حركات في مقياس علماء التجويد، لكنّ إطالة المدّ في (أولئك) أقل من المدّ في (ملائكة) نسبياً كما ورد في رواية خلف السابقة الذكر.

أما المدّ في (جاء أحدهم) باعتبار الكلمتين سلسلة صوتية متتابعة، تتشكل من ستة مقاطع هي: جا + أَ + أَ + حَ + دُ + هُمْ. وبتحليل المقاطع نجد أنّ أربعة من ستة من المقاطع كانت من النوع القصير المفتوح ثلاثة منها وقفات شديدة. والمقطع الأول ممدود والمقطع الأخير طويل مغلق. أما الصوامت فجاء الأول مركباً، والثاني والثالث والخامس وقفة شديدة، والرابع احتكاكي، والسادس فيه صامتان الأول احتكاكي والثاني متوسط أنفي.

ومما يظهر لنا أنّ المدّ يزداد طولاً كلما ازداد عدد المقاطع. فهو الأطول في (جاء أحدهم) وهي مكونة من ستة مقاطع، ثمّ يليها في الطول (ملائكة) ومقاطعها خمسة، وأخيراً تأتي (أولئك) وتتكون من أربعة مقاطع. كذلك نلحظ أنّ المدّ في (جاء أحدهم) سُبق بصامت مركب (انفجاري – احتكاكي) وفي (ملائكة) بأنفي استمراري، أما في (أولئك) فسبق بصامت جانبي. فإنّ لخصائص الأصوات الصامتة السابقة على المدّ تأثير في مدى إطالة صوت المدّ. ويذكر شيخنا استيتية أنّ طول الحركة يزداد إذا كان الصامت الذي يليها مركباً، أو متبوعاً بصوت استمراري.[31] ويبدو أن هذا القانون الصوتي يعمل كذلك إذا سبق المد بصامت مركب أو استمراري ، فيزيد في طوله . كما ظهر لنا فيما سبق.

للنظرة الأولى يبدو أنّ ما ظهر لنا من ازدياد المدّ مع زيادة عدد المقاطع مخالف للقاعدة الصوتية التي قال بها (برتيل مالمبرج) إذ يرى أنّ مُدّة الوحدات الصوتية تتوقف على طول المجموعة المنطوقة، التي تختزل الوحدات الصوتية كلما طالت.[32] كيف يمكن تفسير ذلك؟ في إطار فهمنا للسياق الصوتي الذي يحدث فيه المدّ، يجب أنْ نتنبه إلى مجموعة من الاعتبارات، أهمها أنّ المدّ مقصود في القرآن الكريم لتجويد القراءة، والحفاظ على نطق جميع الأصوات بجميع مراحل نطقها، وبصورة خاصة (الهمزة) لصعوبتها وأولية مخرجها، وبجميع خصائصها الصوتية المميزة لها، وضوحاً وبياناً وفصاحةً. فالأصل أنْ تعمل القاعدة الصوتية السابقة في اختزال الوحدات الصوتية كلما طال السياق الصوتي. لكنّنا وجدنا فيما سبق إطالة في قراءة حمزة كلما طال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السياق الصوتي وزاد عدد المقاطع. وهذا يحتاج إلى بيان.

الزيادة التي حدثت في المدّ في قراءة حمزة في المد الواجب المشبع في النماذج الثلاثة السابقة، بمستوياته الثلاثة وفق رواية خلف، يعود السبب فيها إلى خصائص الأصوات الصامتة اللاحقة والسابقة على المدّ، وليس إلى طول السياق الصوتي الواقع فيه المدّ. ونطمئن إلى القول أنّ السياق الصوتي في المجموعات الصوتية الثلاث قد وقع فيه اختزال، على نحو ما، وقد تمّ اختصار الأصوات التي تقبل الاختزال، كالأصوات الاستمرارية أو الاحتكاكية، أمّا الأصوات الانغلاقية فالاختصار أو الإطالة فيها محدود إنْ لم يكن معدوماً في مثل الهمزة.

ويظهر لنا من التحليل السابق أن أغلب أصوات الكلمات السابقة هي أصوات انفجارية يصعب مدّها أو اختزالها. ولذلك لم يؤثّر طول السياق الصوتي على المدّ سلباً؛ لأنّ عمل التأثير باتجاه إطالة المدّ مع الهمزة قبل المدّ وبعده في (أولئك)، وفي (ملائكة) سببه وقوع الهمزة بعد المد، ووقوع اللام (الصامت الاستمراري) قبلها قد زاد في طولها. أمّا المدّ في (جاء أحدهم) فقد جاء أطول من غيره؛ لاجتماع همزتين في مقطعين متتالين بعده، وفي ذلك ما فيه من الصعوبة النطقية المضاعفة، إضافة إلى وقوع المدّ بعد الجيم (الصوت المركب)، الذي يزيد في طول حرف المدّ. فكانت الإطالة متوافقة مع الخصائص الصوتية للسياق الصوتي الواقع فيه المدّ؛ بسبب الخصائص الصوتية للأصوات في هذا السياق الصوتي.

المدّ والتّنغيـــــم:

بيّنا فيما سبق أن حروف المد تعدّ من الفونيمات القطعية، لكن إطالة هذا المد يخرج بهذه الأصوات عن دورها الوظيفي في إطار الفونيمات القطعية، إلى مستوى آخر من الأداء الصوتي فوق القطعي، وهو التنغيم؛ وذلك لتعدد درجاته التي تؤدي دوراً بارزاً في اختلاف مستويات التنغيم وأشكاله، والذي يلون الأداء الصوتي ويزيده وضوحاً سمعيا بالتركيز عليه، وزيادة مدة نطقه زمنياً، ويؤثر على نحو ما في دلالته، وتأثيره في المخاطب؛ إذ قد يسعى المتكلم بهذه الإطالة إلى أهداف مصاحبه للنطق، تحمل في طياتها نبضات من دفء الحياة وحيويتها، يحمّله المتكلم لهذا المدّ، متناسباً مع مُدّة الإطالة.

فالصوت اللغوي لا يعامل كوحدة مستقلة، وإنما هو عنصر في بناء كلي، وهو حدث الكلام المستمر المسموع، فالفونيم يتحدد بوظيفته في التركيب الصوتي المنطوق لا بذاته. والعلاقة بين الصوت والفونيم ذات صبغة لغوية نستدل بها على خصائص الصوت الوظيفية بخصائص الفونيم لا العكس.[33]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد تبين لنا من خلال الوقوف على بعض التنوعات في المد أنّ المد يمثل طاقة تنغيمية ذات إمكانات كبيرة متعددة المستويات، فضلاً عن إمكانية تحميلها أداءات تنغيمية غير محدودة، تعبر عن مستوى كبير من الثراء الصوتي يوظفه النص القرآني توظيفاً خاصاً ظهر في أداء مقرئي القرآن بجلاء.

قد يبدو اختلاف القراء في تنوع أحكام المد في قراءة الآية القرآنية من قارئ لآخر جانباً سلبياً، لكنّ هذا الاختلاف في حقيقته نوع من التنوع في الأداء، يقدم مستويات من المد ذات إيقاع صوتي خاص، وظلال من المعنى، ربما يأتي من يكشف لنا حقيقة الإعجاز فيها.

إنّ التنغيم الذي يصاحب المد يستوعب كل الإمكانات الصوتية الإبداعية للقارئ، التي تختلف من قارئ إلى آخر. كما أنها توفر مجالاً رحباً لهذا التنوع الأدائي الذي قد تتطلبه بنية الكلمة المقطعية أو التجمع المقطعي للكلمة، ولا تتخلف عن الاستجابة لما تتطلبه البنية التركيبية للجملة، فتعطي القارئ سعة من الحرية للإفادة من المد بمستوياته الكبيرة التي تفوق، في نظرنا، التقسيمات العامة التي أشار إليها علماء القراءات، وهي: القصر، والمد المتوسط، وإشباع المد.

هذا التقسيم يشير صراحة إلى تنوع نغمة المد، لكنه يحاول حصرها بمستويات لغايات الدراسة. بينما نجدها عند عدد من الباحثين والدارسين تصل إلى سبعة مستويا . وهو إشعار يشي بمستويات من المد يفوق نطاق التحديد، ويُفسح المجال لأداءات متعددة، قد يتطلبها التركيب الصوتي للكلمة والجملة. كما لا يمكن إغفال دور المد في ضبط الإيقاع، ورسم الجو الخاص الذي تهدف إليه كلّ آية؛ مما يزيدها وضوحاً وجلاء، ويحقق جمال الأداء والإعجاز الصوتي للقرآن الكريم. [34]

درجـــــــة المدّ:

من ملاحظاتنا لطبيعة المد في الاستخدام اللغوي بعامة، وجدنا أنه يعتمد على أمرين: الأول المتكلم وحاجته إلى إطالة حرف المد إلى مستويات مختلفة، تتبع الجانب النفسي من جهة، أو الموقف اللغوي من جهة أخرى. وتكون متغيرة بحسب تقديرات المتكلم دون ضابط أو قيد، وهي متغيرة من متكلم إلى آخر. الثاني: السياق الصوتي، وهو ما يهمنا، الذي يقع فيه المد. وهو سياق مرتبط بمجموعة من الخصائص الصوتية للأصوات السابقة عليه، والأصوات التالية له، وتأثيرها كبيئة محيطة مؤثرة على نحو أو آخر في درجة المد وطوله أو قصره. وقد اتفق القراء على المد في بعض المواطن واختلفوا في مواطن أخرى. نسعى إلى تحليل كلا الموطنين للوصول إلى القواعد الصوتية الضابطة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لدرجة المد، والوقوف على الخلاف وردّه إلى أسبابه.

يفترض الباحث أن المد متغير الطول والمدة في إطار الأسباب النفسية اللغوية، والقوانين الصوتية للغة، والذي يفوق بكثير ما صرّح به علماؤنا من مستويات وتنوع في أداء المد. فقد اختلف علماء القراءات في تحديد أقسام المد، لكنّ أغلبهم على القول بوجود أربع درجات فوق المد الطبيعي وهي: فويق القصر ومقداره ثلاث حركات بأصابع اليد، والتوسط ومقداره أربع حركات، وفويق التوسط ومقداره خمس حركات، والإشباع ومقداره ست حركات.[35] وعلى الرغم من محاولة علماء القراءات الجادة لضبط المد، بوضع معايير محددة، إلا أنّ الواقع اللغوي يظهر لنا وجود فروق دقيقة تجعل من سلم المد الصوتي أوسع بكثير مما صرحوا به في قياساتهم. ذلك أنّ مدّة الوحدات الأصواتية تتوقف على طول المجموعة المنطوقة، فكلما كانت هذه المجموعة طويلة اختزلت كلّ وحدة. [36]

نبر المـــــــــدّ:

النبر هو زيادة في التوتر الصوتي، والمدة الزمنية لنطق الصوت. وهو ارتفاع وعلو في الصوت تُحدثه إطالة أصوات المد. وإنّ أي تغير في بنية الكلمة قد يترتب عليه تغير في موضع النبر. الفعل (كتب) يحمل النبر على المقطع / كَ / فإذا أصبح مضارعاً (يكتب) انتقل النبر إلى المقطع الذي يليه وهو/ تـُ/. [37] فهل يؤثر مد المقطع على موضع النبر في الكلمة؟ وماذا يحدث إذا ازداد المد إلى حدّ الإشباع، في مثل: ملائكة، وأولئك، وجاء أحدهم؟

النبر كما بينة أنيس في كتابه الأصوات اللغوية يكون على المقطع الطويل المكون من / ص + ح + ص /، وغالباً ما يكـــون على المقطع قبل الأخير، وهو أشهر المواقع.[38] وعلى هذا يقع النبر في الكلمات السابقة على المقطع الممدود، الذي ازداد قوة ووضوحاً مع إشباع المدّ؛ ذلك انّ المقطع الممدود المشبع مداً يزداد طوله على نحو مميز، فينتقل من مقطع متوســـــط إلى مقطع طوي . إذ طبيعة المقطع هي التي تحدد موقع النبر في الكلمـــــة.

والمدّ في رأي لتمام حسان أنّه قد يوظف بصورة تنغيمية تقوي العلاقة بين إحدى كلمات السياق وبين معناها الذي سيقت له، فإذا قال: «بلاد بعيدة « عبّر عن شدة البعد بمدّ الياء مدّا طويلا.[39] ووظيفة النبر هي إشباع مقطع من المقاطع نطقاً بالضغط والارتكاز عليه بحيث يكون أوضح مقارنة بالمقاطع أخرى، ويعتبر أحد الملامح التمييزية أو التنوعات الصوتية التي تنوع الدلالة، ويعتمد عليها السياق.[40]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبصرف النظر عن أنواع المد وأشكاله[41]، فإنه يتصف بالعلو والارتفاع والوضوح السمعي. وهذا ما تُحدثه الإطالة في المد، خاصة إذا كان مشبعاً بمقدار ست حركات. ومن شأن هذه الإطالة التأثير في موقعية النبر الرئيس الأقوى، أو الأولي من مقطع إلى آخر، إنْ لم يكن واقع على المقطع نفسه. مثال ذلك النبر في الفعل (انكسر) فإنه يقع على المقطع / كَ / أما النبر في كلمة (انكسار)، بتحول الفتحة إلى ألف، فقد انتقل النبر إلى المقطع / سا /[42] وبهذا يكون سبب نقل النبر التغير الذي أصاب الفتحة وحولها إلى ألف بعد مدِّها مداً طبيعياً. وهو ما يُدعى بنبر الطول الذي يحدث مع الصوائت عند إطالتها في النطق.

والمد فسيولوجياً يزيد من الحزم الصوتية لحروف المد، ويتطلب جهداً عضلياً كبيرا تبذله عناصر جهاز النطق لإطالة الصوت وإيضاحه وظهوره، حتى يكتسب المقطع إسماعاً أكثر من غيره من المقاطع. [43]

والمد بإشباع الحركة الطويلة يجمع حوله الوحدات الصوتية، فيجلب النبر إلى المقطع الممدود، ليجعله أكثر وضوحاً وإسماعاً. فإذا وقع النبر على المقطع الممدود أفاد منه في جعل المقطع مركز التركيب الصوتي للكلمة، وقد يؤدي إلى جعل الكلمة محور البنية التركيبية في الجملة؛ بما يُحدثه من توتر صوتي مميز، مضيفاً خصائص صوتية مؤثرة، لا تتوفر في الكلمة أو الجملة في غياب المد.

يغلب المد على الصيغ المدّية ذات المقاطع المتوسطة مزدوجة الانفتاح؛ لأنّ طبيعة نطقها يتطلب مدة زمنية أطول، وكمية صوتية مضاعفة؛ مما يجعلها تبدو أكثر وضوحاً.[44]

الخاتمـــــــة:

جاءت هذه الدراسة لتتناول جانباً صوتياً مهماً يتعلق بظاهرة مدّ الحركات في العربية، وبينت التغيرات التي تترتب على مدّ الأصوات اللغوية وبصورة خاصة حروف المد في القرآن الكريم. وانتهت إلى نتائج تظهر مدى التناسق الذي يُحدثه المدّ في البنية المقطعية، ويغير في بنيته، وحاجة السياق الصوتي لهذا المدّ. كما أنّه يؤثر على النبر وينقله الى المقطع الممدود. ويسعى الى إحداث تناغم بين المقاطع، وضبط الإيقاع الصوتي للكلمات. وبينت الدراسة أنّ هناك دورا بالغ الأهمية يقوم به المدّ في نغمة الكلمة، وينعكس كذلك بصورة واضحة ومؤثرة على التنغيم في الجملة، ويكون له تأثير خاص في المخاطب، والقارئ للقرآن الكريم.

ووجدنا أنّ القرآن يراعي قضايا المدّ ويضبطها في مستويين الأول: مستوى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المدّ اللازم قبل الهمزة والسكون، ويراعى فيه المدّ عند أغلب القراء، والمستوى الثاني: اختياري يترك مساحة كبيرة من الخيارات للقراء كما أنه يقدم امكانات صوتية كبيرة، من التلوين الصوتي ضمن مستوى واسع من الدرجات الصوتية، تسمح للقارئ أن يقدم كلّ ما يملك من إمكانات صوتية، لتجويد القراءة وإيصال المعنى.

الهوامـــــــش:

(1) سورة الإسراء: 20.

(2) الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت: 170هـ)، كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، ود إبراهيم السامرائي، بيروت - مؤسسة الأعلمي، 1988م، ج8/ 16 - 17.

(3) العاني، عبد القادر،(ت: 1398هـ)، بيان المعاني، ط1، 1965 م، مطبعـــــة الترقي، دمشق.

(4) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت: 395هـ)، الفروق اللغوية، حققه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر ج1، ص: 270.

(5) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل(ت: 458هـ)، المخصص،ج 4، ط1 1996م، حققه: خليل إبراهم جفال، دار إحيـــــــــاء التراث العربي – بيروت، ص: 22.

(6) ابن منظور، جمال الدين (ت: 711هـ)، لسان العرب، فصل السين،ج2،ط1414-3هـ، بيروت، دار صـــــــــــــادر، ص: 488.

(7) المرجع السابق ، فصل الميم،ج3،ص: 396 .

(8) السيد، رزق الطويـــــل (ت: 1419هـ) مدخل في علوم القراءات، ط 1 – 1985م ، المكتبة الفيصليـــــــة، ص: 188 - 189.

(9) ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير (ت 833هـ)، شرح طيبة النشر، ط 2، 2000م ،دار الكتب العلمية - بيروت ص: 71.

(10) أبو البقاء، علي بن عثمان(ت: 801هـ) سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي، الطبعة: الثالثة- 1954 م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ص: 48.

(11) برتيل مالمبرج، علم الأصوات، تعريب د.عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب – القاهرة، 1986م، ص: 175.

(12) إبراهيم أنيس،الأصوات اللغوية، مكتبة نهضـــــة مصر، (د، ت)، ص: 80.

(13) المرجع السابق، ص: 82.

(14) ابن جني،أبو الفتح عثمان، الخصائص،ج3 ، ط4، تحقيق محمد على النجار، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، 1990م، ص: 127.

(15) إبراهيم أنيس، الأصـــــــــوات اللغوية، ص: 77 .

(16) المرجع السابـــــــــــــــــــق، ص: 77.

(17) الشايب، فوزي حسن، محاضرات في اللسانيات، ط 1، منشورات وزارة الثقافة – عمان،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1999م، ص159

(18) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، (ج1)، ص: 58.

(19) ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطيان، (ط3)، دار الفكر دمشق، 1983م، ص: 72.

(20) ابن يعيش، شرح المفصل، قدم له: إميل بديع يعقوب،ج6، ط1، دار الكتب العلمية-بيروت، ص:31.

(21) إبراهيم أنيس، الأصوات، ص: 81.

(22) أيوب، عبد الرحمن، أصوات اللغة، ط2، مطبعة الكيلاني–القاهرة 1968م، ص:139.

(23) إبراهيم أنيس، الأصوات، ص: 98-97.

(24) تمام حسان،اللغة العربية مبناها ومعناها، ط 3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م، ص: 306 - 307.

(25) برتيل مالمبرج، علم الأصوات، تعريب عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة 1986م ص: 102.

(26) رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، ص: 67.

(27) سيبويه، أبو بشر، الكتاب، حقيق: عبد السلام هارون، ج3 ، ط3 ، عالم الكتب، 1983-م ص: 551.

(28) استيتية، سمير شريف، القراءات القرآنية، عالم الكتب الحديث، اربد، 2005، ص: 29.

(29) استيتية، سمير شريف، القراءات القرآنية، عالم الكتب الحديث، اربد، 2005، ص: 29.

(30) سراج المبتدئ، سمير، ص: 49، 132.

(31) استيتية، سمير شريف، الأصوات اللغوية، ط1، دار وائل للنشر، 2003، ص: 260.

(32) برتيل مالمبرج ، علم الأصوات، ص: 36.

(33) شاهين، عبد الصبور، في علم اللغة العام، ص: 129.

(34) أبو عاصي، حمدان رضوان،الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، مجلة الجامعة الإسلامية،(سلسلة الدراسات الإنسانية) مجلد17، ع2، 2009، ص: 78.

(35) استيتية، القراءات، ص: 131.

(36) برتيل مالمبرج، علم الأصوات، ص: 176.

(37) إبراهيم أنيس، الأصوات، ص: 104.

(38) إبراهيم أنيس، الأصوات، ص: 100.

(39) حسان، تمام، اللغة العربية مبناها ومعناها، ص: 310.

(40) بسناني، سعاد، مصطلح النبر في الدرس اللساني العربي، جامعة وهران السانية، ص:88.

(41) انظر: معجم الأصوات، محمد علي الخولي، ط 2، 1982م، ص: 169 - 173.

(42) إبراهيم أنيس، الأصوات، ص: 104.

(43) هلال، عبد الغفار، أبنية العربية في ضوء علم التشكيل الصوتي، ط1، دار الطباعة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المحمدية، القاهرة، 1979م، ص: 158.

(44) بسناني، سعاد، مصطلـــــــــح النبر في الدرس اللساني العربي، جامعة وهران السانية، ص: 90.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com